اللغة العربية ومقامها بين اللغات

أتينا فى الكلمة السابقة (١) على دعوى جمود اللغة وقدمها ، وقعودها عن مسايرة الفكر فى هذا العصر فكشفنا غطاءها و بينا خبيئها . وأخرجناها من لفائفها وما يحيطها من إبهام ، ونزعناها من سدائلها وما يكتنفها من إبهام . فظهرت أنها لا أصل لها . ولا مساغ لتصديقها .

وكان أن مرت بنا فترة من الزمن توترت العلاقة بيننا و بين الاستاذ الفاضل صاحب «المعرفة» قليلا ، فأوقفنا فى الطريق دون التكملة . أما وقد زال والحمد لله ما كان بيننا من سوء فلا ضير إذن من العود إلى الإتمام :

وسنعرض اليوم الى دعوى أخرى يعتبرها — أولئك القاصرون فى اللغة العربية — حجر الزاوية فى بنائهم وهى دعواهم أن اللغة العربية تعجز عن نقل الثقافات الغربية الينا وما يبرزه علماء أوربا وأدباؤها من علم وأدب وفلسفة واجتماع وما إلى ذلك مما يطول فيه باعهم وتقصر عنه أفهامنا .

ولم ندر والله كيف يتسنى لامرىء أن يستسيغ هذا الكلام وعنده شيء من التفكير الصحيح ، اللهم إلا اذا أسف عقله وأمده بعد بخيال كسيح . وما لمثل هذا نكتب لأننا لا نطمع فى إقناعه اذ أنه لا يشعر إلا بمقدار ما فى نفسه من مادة الشعور لا بمقدار ما فى شعوره من مادة الحقيقة — كما أننا لا نحب أن نقف باللغة العربية عند حدود الاعصر البدوية الاولى فنطلق الجمل على « الاكسبريس » والهودج على عربة (بولمان) ونحصر سيال الفكر الجارف فى ذلك المفيض الضحل لأن طبيعة الحياة وسنة الترقى تقضيان بالمبادلة الفكرية والتعاون العقلى منعا لانقطاع الصلة بين الشعوب ودفعا للعزلة بين الامم . وإذن فلننظر هل اللغة العربية صالحة ؟ لايجاد تلك الصلة أم يقعد بها العجز دون إيجادها ؟

كان عصر الدولة العباسية عصر ترجمة وانتاج عقلى استعرضت فيه طائفة كبيرة من آراء اليونان وخصوصا عهد « المأمون بن الرشيد » الخليفة العباسى فانه أقام « بيت الحكمة » فى « بغداد » فى القرن الثانى للهجرة وجمع فيه صفوة مختارة من أساطين العلماء المشتغلين بالنسخ والترجمة « كيحيى بن ماسويه وحنين بن اسحاق وابنه اسحاق بن حنين وحبيش الاعشم »

وكان أول عهد احتكاك العرب بتلك الآراء مقرونا باسم « عبد الله بن المقفع » ولم نسمع بأن اللغة العربية ضاقت يوما بنقل تلك الثقافة على اختلاف أنواعها وتباين ألوانها (٣) ولسنا

(١) راجع مجلة المعرفة ج ٤ (٢) المسعودى ج ٨ طبع ليبسك (٣) تاريخ الفكر العربى

نغلو إذا قلنا إنها أمدت اللغة اللاتينية، والاغريقية، ومعلوم أنهما من منحدر لغات أوربا جمعاء بالكثير من الكلمات (٢)

فمثلا كلمة Habere في اللاتينية وبالفرنسية Avoir وبالانكليزية To have أخذت عن أصل عربي وهو « حوى » وكلمة Esse وبالفرنسية Etre وباليونانية Einai أصلها عربي وهو «أيس» (٢) كما أننا لا نبعد عن الحق ونضل الصواب اذا قلنا أيضا إن أوربا الحديثة تلقت بذور ثقافتها عن العرب بل إن عوامل نهضتها الفكرية وصلتها عن طريق اللغة العربية، فأن العرب كانت من أسبق الامم إلى ترجمة كتب الاغريق وعرفان قيمتها العلمية ولولاهم لظلت مجلولة النائدة فمثلا، كتب (ذيوفانتس)Diophantes لم تصل الغربيين إلا عن الترجمة العربية، وكذلك كانت العربية عمدة من نقلوا الثقافة « السنسكريتية »الهندسية (٣) الى الفارسية والانكليزية والفرنسية والالمانيه والاسبانية .

ولسنا في مقام المفاضلة ـ بين الشرقيين والغربيين ـ حتى نذهب بعيدا وبين أيدينا الجمهرة الوافية من كتبهم منقولة الى لغتنا نقلا دقيقا كاملا غير منقوص بل مزودة بثمار الفكر الغربي الناضج ولنتخذ الانجليزية مثلا فى مساق الدليل، ألم يكن عندنا فيه : مكبث وتاجر البندقية، وعطيل، وهملت، ويوليوس قيصر . الخ ؟ وفيما يلى قطعة من الشعر الانكليزى يعدها الانكليز من عيون شعرهم ننقلها مع ترجمتها بالعربية احتى تتسنى المقابلة بينهما وليكون ذلك أوقع فى تقرير البرهان. وهى للشاعر الانكليزى Henry Longfellow « هنرى لونجفلو »

" As unto the bow the cord is,
So unto the man is woman:
Though she bends him , she obeys him
Though she draws him , yet she follows .

ولقد يجمل بنا أن نختم هذه الكلمة بالقصيدة الآتية وهى من تعريب الاستاذ الهراوى ننقلها بدون أصلها الانجليزى خشية التطويل وهى تتضمن حديث « مكبث » مع خنجره حين أراد أن يقتل عمه (ضنكان) ليرث الملك بعده وهى أيضا من شعر « شكسبير » الشاعر الانكليزى العظيم فى رواية « مكبث » على أن هذه الرواية بأجمعها ترجمها الى الشعر العربى شاعر مصر الكبير الاستاذ حافظ بك ابراهيم فيما نعلم وإن لم يطبعها :

---

(١) تاريخ الفكر العربى
(٢) الهلال ج ٢ ص ٣٧ (٣) تاريخ الفكر العربى ص ٣١

أرى خنجرا يدلى إلى بمقبض أنصلا ترى عيناى أم أنا خائله
فيأيها النصل الذى لاح فى الدجى وقد حال دون اللمس لا اللمح حائله
ترى أنت نصل أم تخيل واهم به خبل الحمى فخابت دلائله
نعم أنت فى عينى مثلت مثلما أجرد نصلا هذبته صياقله
وقد جئت تهدينى طريقا شرعتها وتشبه نصلى فى الذى أنا فاعله
أكذب عينى أم أصدق مارأت وهل صح حسى أم دهى الحس خابله
وإلا فما بالى أراك وقد بدا عليك دم لم يبد من قبل سائله
لقد بات شطر الكون فى جنح وحسة كأن عليه الموت تضفو سدائله
وأزعجت الغافى وقد نام آمنا رؤى حلم سلت عليه مناصله
وقامت تناجى ربة السحر نسوة تعلمن علم السحر ماطال طائله
هنا لك تلقى غائل الموت ماثلا أشاجعه معروفة ومفاضله
يهب اذا ماهتاجه الذئب عاويا وللختل خلق فى الذئاب مخائله
فيا أرض صدى مسمعيك وأنكرى سبيلى ولا يعلم بأمرى جاهله
فأنى لأخشى منك وسوسة الحصى اذا استنبأ الصفوان عنى مسائله
فيجفل ليل الروع فى حين مهدت ويثت على طرق النفوس حبائله
«أضنكان» لاتفزع فذلك لم يكن سوى نبأ آت من القبر حامله
سواء أفى الفردوس أم فى جهنم أعد لك القبر الذى أنت نازله

وقد يكون من المستحسن ان ننقل عن تعريب حافظ بك ابراهيم تلك القصيدة . لكنا نكتفى بما قاله عن « مكبث » حينما تملكته نزوة القتل :

فياحلم قاطعنى ويارشد لاتثب ويابشر مالى من يديك فرار
وياليل أنزلنى بجوفك منزلا يضل به سرب القطا ويحار
وان كنت ليل «المانوية» فليكن على سر أهل الشر منك ستار
على الفتك يا ضنكان صحت عزيمتى وإن لم يكن بينى وبينك ثار

وبعد فهذه كلمة نرجو أن نكون قد انزلنا فيها جادة الانصاف ولم نخرج عن الحق فى كثير ولا قليل ؟

محمد الصاوى عمار